آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية مكتبية.

تصدر عن إدارة البحث العلمي والنشاط الثقافي بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث.

السنة الثانية - العدد السابع، رجب ١٤١٥ هـ / ديسمبر (كانون الأول) ١٩٩٤

النفائس العصرية

السنة الاولى

﴿١٩٠٨ - ١٩٠٩﴾

طبع في المطبعة الوطنية، حيفا (سوريا)

صورة غلاف مجلة النفائس العصرية - حيفا

ابن عبّاد الرُّندي

الأستاذ عبد القادر زمامه
كلية الآداب – فاس

مَحمد بن إبراهيم بن عبدالله بن مالك بن إبراهيم يكنى بأبي عبدالله. ويُعرف في كتب التاريخ والطبقات بابن عبّاد الرُّنْدي. وعبّاد جده الأعلى. ويُزاد في نسبته: الحِمْيَري النَفْزي. وتُفتح الميمُ من اسمه فيقال فيه «مَحمُد».

ولد بمدينة رُندة (Ronda)جنوب الأندلس سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣ م من أسرة ذات ذكر وشهرة في الأندلس. كان والده عالماً خطيباً واعظاً. وكان خاله فقيهاً قاضياً. وكانت رُنْدَةُ من المدن الأندلسية التابعة لبني الأحمر ملوك غرناطة. إلاّ أنَّ الظروف السياسية والعسكرية اقتضت أن تكون تحت حكم بني مُرين ونفوذهم في فترات معيّنة. وهي من المدن الأندلسية التي شاهدها ووصف بعض معالمها الرحّالة ابن بطوطة وقال عنها: «وهي من أمنع معاقل المسلمين وأجملها...»(١) وقد حظي ابنُ عبّاد بعناية خاصة من والده وخاله وعلماء آخرين من شيوخ رُندة، فنال من التربية ودراسة معارف العصر ما أهلّه ليتابع المادة العلمية من قرآن وحديث وفقه وعقائد

وأدب وسيرة وتاريخ ونحو ولغة. مما يظهر أثره جلياً فيما كتبه بعد من رسائل وما ألّفه من كتب وما ألقاه من خطب وأحاديث ومواعظ.

ولا نعلم شيئاً محققاً عن دخول ابن عبّاد عاصمة غرناطة أو عدم دخولها والترجمة الموجودة في كتاب «الإحاطة» لابن الخطيب(٢) وكذلك في كتاب «الكتيبة الكامنة»(٣) للمؤلف نفسه هي في الحقيقة لشخصية أخرى، صاحبها محمد بن يحيى ابن عبّاد الرندي النَّفزي ويكنّى بأبي عَمْرو. وبسبب هذه الترجمة التي كتبها ابن الخطيب في كتابيه «الإحاطة» و«الكتيبة» وقعت عدةُ أخطاء في الاستنتاجات. حيث ظنّ بعض المؤلفين والباحثين أنها لابن عبّاد الرّندي الصوفي الذي نتحدث عنه الآن، وليست كذلك.

غادر ابنُ عبّاد الرّندي الأندلس إلى المغرب في تاريخ لا نعلمه بالضبط. إلا أنه يجب أن يكون قبل سنة ٧٦٥ هـ/ ١٣٦٤ م. وهي السنة التي توفي فيها شيخه في التصوف ومربّيه في السلوك أبو العباس أحمد ابن عاشر الصوفي دفين مدينة سلا. وضريحه مشهور بها إلى الآن.

والذي يلفت النظر في أثناء البحث والاستقراء للمصادر القديمة أن الحَضْرَمي يذكر في كتابه «السلسل العذب والمنهل الأحلى» مرافقة ابنِ عبّاد الرُّندي في الأخذ عن شيخه أبي العباسَ ابن عاشر لشخصيتين هما أبو بكر بن إبراهيم الرّندي المكنى بأبي يحيى. ومحمد ابن قاضي سلا إذ ذاك، أحمد الزهري. ويَظهر من كلام الحضرمي وهو مؤرخ معاصر لابن عبّاد أن أبا بكر ابن عبّاد كان صوفياً زاهداً ذا سلوك خاص وأتباع وتلاميذ.

وتنقّل صاحبنا ابنُ عباد الرّندي باحثاً عن الأساتذة والشيوخ في كل من تلمسان، وفاس، وسلا، وطنجة. وربما في مُدن أخرى. إلاّ أن المصادر التي بين أيدينا الآن لا تفيدنا بالمعلومات التي تحدّد ذلك بالزمان والمكان، ليمكننا معها تفصيل مراحل حياته بالمغرب.

وبما أنّ ابن عبّاد دخل مدينة تلمسان وكان من التلاميذ الذين حضروا مجالس القاضي أبي عبدالله المَقَّري – جدّ مؤلف «نفح الطيب» فإن المَقَّري الحفيد صاحب نفح الطيب تحدث طويلاً عن ابن عبّاد لأنه من تلاميذ جدّه(٤). وذكر نقولاً ومعلومات تتعلق بثقافته العلمية وتربيته الصوفية وشهرته في البلاد المغربية.

كان ابن عبّاد في المغرب يعيش في ظروف دقيقة من تاريخ دولة بني مُرين. بعد موت أبي عِنَان وأبي سالم. ودخول البلاد في دوّامة من الاضطرابات والتكالب على السلطة والنفوذ.

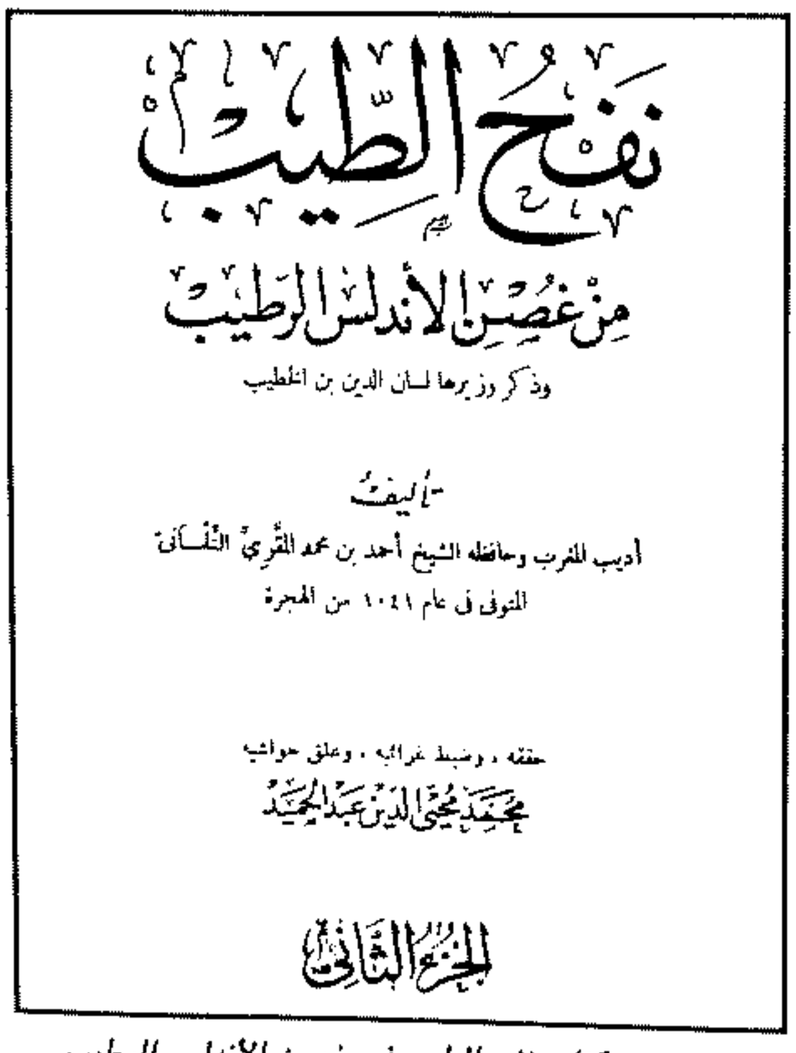
نفح الطيب
من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب
تأليف
أديب المغرب وحافظه الشيخ أحمد بن محمد المقّريّ التلمساني
المتوفى عام ١٠٤١ من الهجرة
حققه، وضبط غرائبه، وعلق حواشيه
محمد محيي الدين عبد الحميد
الجزء الثاني

كتاب نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب

وتدهور العلاقات بين المغرب ودولة بني الأحمر.
ولقد انعكس ذلك كله على الحياة العامة في البوادي والحواضر، وعلى تفكير الناس وسلوكهم. وخير معبّر عن هذا ما كتبه ابنُ عبّاد في مجموعتيْ رسائله الكبرى، والصغرى، وفيما كان يراسل به أهل السلطة من استنكار للمظالم والتضييق على الناس في معاشهم بفرض أصناف من الضرائب والجبايات والمكوس.
وكان هذا مدعاة ليَلْتَفَّ حول ابن عبّاد عدد كبير من التلاميذ والأتباع. وأن تنشأ حول تصوّفه وسلوكه الاجتماعي والأخلاقي مدرسة واضحة المعالم في عصره، ولاسيما في تلاميذه، ومن أشهرهم ابن السكاك (– ٨١٨ هـ/ ١٤١٥ م).
كما أن شهرة ابن عبّاد بالعلم والصلاح وبعده عن الشبهات وإقباله مع تلاميذه على الحياة الصوفية بورعها، وعبادتها، ورياضتها، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأساليب ليّنة نافعة، كلّ ذلك جعل أهل السلطة في فاس يلزمونه بالقيام بعمل ذي تقدير واعتبار يستحقه هو إمامة جامع القرويين والخطابة فيه. وكان ذلك سنة ٧٧٧ هـ/ ١٣٧٥ م أي في المرحلة الأخيرة من حياته. واستمر قائماً بهما طيلة خمس عشرة سنة إلى أن توفي سنة ٧٩٢ هـ/ ١٣٩٠ م وأُقبر في ضريحه الشهير بباب الحمراء من مدينة فاس، وهو مشهور بها إلى الآن.
وكان تصوّف ابن عبّاد كما يظهر من كتابات قائماً على أساس دقيق من تصفية النفس عن طريق تقوية الإرادة بالرياضة الدائمة من خلوة وانقباض وورع وزهد وخمول وتواضع. وقد طبّق ذلك على سلوكه الخاص. فعاش مبتعداً عن المال والجاه مقبلاً على الواجبات والفرائض والنوافل وإخلاص النصح لعامة الناس وخاصتهم، ولم يتزوج.
ولا ظِلَّ في تصوّف ابن عبّاد لوحدة الوُجود ولا لوحدة الشُّهود، ولم يرم نفسه ولا أفكاره في الشطحات والمتاهات. وغاية الأمر أنه اتخذ الشاذلية قدوة ومنهاجاً، ولم يأخذها عن شيخ معين كما يظهر.
من أشهر آثار ابن عبّاد:
– «شرح حكم ابن عطاء الله».
– «الرسائل الكبرى». أرسلها إلى تلميذه يحيى السراج (– ٨٠٥ هـ/ ١٤٠٢ م).
– «الرسائل الصغرى». أرسل بعضها إلى يحيى السراج، وبعضها إلى محمد بن أديبة.

* *

ترك ابن عبّاد ذكرى طيبة بالمغرب ولاسيّما في مدينة فاس. وتُنسب إليه بها عدة أشياء. وتُروى له عدة أخبار في الورع والعلم وتدل على رغبته في تربية أتباعه وتلامذته على الإخلاص والزهد والسعي لإصلاح أحوال المجتمع بطريقة شرعية.
كما أن كتب التاريخ والتراجم والفهارس تحدثت عنه بوصفه من أعلام المعرفة والتصوف الذين تركوا أمثلة حية في مجتمعهم لا ينساها الناس.

الحواشي :

١ – رحلة ابن بطوطة ٢/ ١٨٨.
٢ – الإحاطة ٣/ ٢٥٣.
٣ – الكتيبة الكامنة، ٤٠.
٤ – نفح الطيب.

المراجع والمصادر :

١ – ابن بطوطة، محمد بن عبدالله (– ٧٧٩ هـ/ ١٣٧٧ م)، «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، القاهرة ١٩٥٨ م.
٢ – ابن الخطيب، محمد بن عبدالله، لسان الدين، (– ٧٧٦ هـ/ ١٣٧٤ م): ١)«الإحاطة في تاريخ غرناطة»، القاهرة ١٩٧٧ م، ٢)«الكتيبة الكامنة»، بيروت ١٩٦٣ م.
٣ – ابن قُنْفذ، أحمد بن حسين (– ٨١٠ هـ/ ١٤٠٧ م)، «أنس الفقير وعزّ الحقير»، الرباط، كلية الآداب ١٩٦٢ م.
٤ – الحضرمي، محمد بن أبي بكر (– ٧٨٧ هـ/ ١٥٨٥ م)، «السلسل العذب والمنهل الأحلى»، تحقيق محمد الفاسي، القاهرة، معهد المخطوطات، مجلة المخطوطات العربية مج ١٠، ١/ ٣٧ – ٩٨.
– الكتاني، محمد بن جعفر (– ١٣٤٥ هـ/ ١٩٢٧ م)، «سلوة الأنفاس في تراجم علماء فاس وصلحائها» ١٣١٦ هـ.
– المقّري، أحمد بن محمد (– ١٠٤١ هـ/ ١٦٣١ م) «نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب»، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٨.